المنار
١٣١٥

في يوم السبت ٢٣ صفر سنة ١٣١٧ الموافق ١ يوليو (تموز) سنه ١٨٩٩

﴿ النهضة الاسلامية في مصر ﴾

قالوا ان للامم ثلاثة أدوار ـ نمو ووقوف وهبوط يتلوه الموت ـ ولكن كيف تكون الامة فتنقلب في هذه الادوار ؟ كانت الامم تكون بالمصيبة والحرب وتحيا بقوة الساعد وكثرة عدد المساعد وأما في هذا العصر فقد ارتقى النوع الانساني عن ان تكون حياته بقواه الحيوانية وكثرته العددية وصارت حياته بالقوتين العلمية والادبية وما ينشأ عنهما من القوة الصناعية وفي اليابان والصين آية مبصرة للناظرين . وكيف تنهض الامم الخاملة بالعلم وتحيا بعد موتها بالآداب ؟ يسوق الله تعالى اليها أو ينشىء فيها أفراداً من أصحاب العقول الكبيرة والهمم العالية والفضائل السامية تكون لهم هذه المزايا بالفطرة فيدركون بها علل ضعف الامة وخمولها وأسباب صحتها ونباهتها ويجتهدون في نشر هذا فيها بالتعليم الصحيح فعند ما تلقى هذه التعاليم في الامة تضطرب لها ـ وكيف لا يضطرب الساهي تفاجئه صيحة الحق ـ ثم تقع في حيرة لا تدري هل الصواب بقاؤها على ما كانت عليه وان أنذرت بان فيه حينها وهلاكها أو الاخذ بما تدعى اليه وفيه مفارقة عادها ومألوفها . ثم يكون الناس أزواجا

ثلاثة (١) مقاومون معاندون ينفرون عن الدعوة الى الاصلاح باسم الدين و (٢) مخضرمون يصيخون الى الدعوة فلا يعقلونها كما هي فيكون من أثرها فيهم نبذ التعاليم العتيقة حسنها وقبيحها والاكتفاء من التعاليم الجديدة بما لا يظهر أثره في الاصلاح فيكونون بما استهانوا به حتى من محاسن أسلافهم وبما عساه يوجد فيهم من المغامز الشخصية حجة للمعارضين المعاندين و (٣) عقلاء فضلاء يكتنهون شؤون الامة ويقفون على عللها وأمراضها ولو في الجملة ومتى أخذوا بالعمل يزدادون بصيرة وعلما ولكن اشمة أفكارهم لا تخترق حجب الاوهام الضاربة في أذهان بني وطنهم الا رويداً رويداً كما هي سنة الله في الانسان يعرج في سلاليم الترقي درجة درجة لانه يطفر طفورا

كأن مبدأ هذه النهضة في مصر رجل اعجمي الوطن علوي النسب وهبه الله من ذكاء العقل وزكاء الفطرة ما يندر مثله في الاجيال الكثيرة والقرون الطويلة الا وهو الحكيم الاسلامي الشهير السيد جمال الدين الافغاني الحسيني نوّر الله مرقده . تربى الرجل تربية دينية فقرأ العلوم الاسلامية وسائلها ومقاصدها وبرع في الفنون العقلية كالحكمة القديمة والكلام والاصول ثم نظر في الفنون الرياضية والفلسفية على طريقة اوربا الحديثة وسلك طريق التصوف سلوكا كاملا واضاف الى علمه الواسع في التاريخ الاختبار بالسياحة وعني اشد العناية بدراسة احوال الاسلام وتعرف امراض المسلمين الاجتماعية التي ارجعتهم من مقدمة الامم الى ماوراءها الخ ماهو معروف من سيرته وقد كان وقف نفسه على تنبيه المسلمين من غفلتهم وارشادهم للقيام بواجب شؤونهم لكي تلحق الامة بالامم العزيزة ولكن الامة امست كالمريض الاحمق يأبى الدواء ويخافه من

حيث انه دواء وقد اعتادت منذ قرون على ان لا تقبل اصلاحا الا اذا كان صادراً من جانب القوة الحاكمة ولذلك لم يوجد مستبد ظالم من سلاطينها وامرائها حاول عملا مضرا وقاومته فيه بل تستبدل المساعدة له بالمساندة فاذا استفتى العلماء يحرفون له الكلم فيفتونه واذا استرفد الوجهاء يبذلون له النفس والنفيس فيرفدونه ولاجل هذا لجأ السيد جمال الدين الى عالم السياسة وحاول ان يكون الاصلاح من جانب الملوك والامراء لتخضع له الاعناق ويسري سريان الرياح في جميع الآفاق . ولقد كان سلك في مصر طريقة الاصلاح المثلى وهي التربية والتعليم فانبري له علماء السوء الذين أظهر تقصيرهم في العلم وخطأهم في التعليم فوضعوا في طريقة الاشواك والعوائر وحاربوه بسلاح الدين الذي جعلوه آلة للدفاع وأحبولة للانتفاع وذلك بان نفثوا في روع الدهماء من الناس بانه منحرف عن هديه وشارك بعض علماء السوء في مظاهرته بعض المخلصين انخداعا لهم وكان لهم في ذلك شبهات ثلاث (اولاها) انه كان يعرف الفلسفة ومتوغلا في العلوم العقلية وهذا النوع من السلاح هو الذي حاربوا به اساطين الامة من قبل وبهذه الشبهة كفروا الامام الغزالي واضرابه واحرقوا كتابه احياء علوم الدين في الشرق والغرب ثم كتبوه بعد ذلك بماء الذهب وسموا صاحبه حجة الاسلام وكذلك يفعلون (الثانية) عدم التقيد بالعادات التي الفوها ولونوا الكثير منها بلون ديني فصار في نظر العامة من شعائر الدين وهو في الحقيقة مخالف لاصوله او فروعه (الثالثة) ان كثيرا من المترددين عليه والمتلقين عنه كانوا لا يبالون بأمر الدين وانما كان لهم هذا من فساد تربيتهم الاولى لا من الاجتماع به اذ لم يكن هو الذي رباهم وعلمهم من النشأة الاولى والرجل كان يبذل الحكمة

لكل من يحضر مجلسه من بر وفاجر ولا يمنع منه مؤمن ولا كافر والناس معادن كل يؤخذ مايلائم معدنه ويناسب مشربه والحكمة كالمطر تلقي في ارض النفوس فتكيف كل نفس منها بحسب استعدادها كما يغتذي البطيخ والحنظل النابتين في ارض واحدة من ماء واحد ويكون ثمر احدهما حلو المذاق والآخر مرا زعاق « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون »

كان فريق ممن يحضر مجلسه يسيئ الفهم ويسيئ الاداء ومنهم الذين يلوون السنتهم بالكتاب ويحرفون الكلم عن مواضعه ومنهم الذين يقولون كذباً ويخاتمون افكا . وكل هذه الفرق كانت توجد في زمان الاصلاح النبوى وابان نزول الوحي وظهور الآيات البينات . فما بالك باتباع غير الانبياء ومتبوعوهم مهما عظمت حكمتهم ضعفاء لانهم وان منحوا الحكمة لم يؤيدوا بالعصمة . انني مالقيت الرجل ولكنني استقريت انباءه وتتبعت مواقع الانتقاد عليه حتي عرفت مثارها ووقفت على مهب اهوائها . علمت ان بعضها كان من سوء الفهم وبعضها من سوء قصد الناقلين المذاعين لا لعنة الله على الكاذبين . اذكر لسوء النهم مثالا واحداً ـ قال لى منتقد من اهل العلم انني حضرت مجلس السيد جمال الدين حتي نهانا عن الصلاة في يوم من الايام فانقطعت عنه فقلت له كيف كانت القصة وهل نهاكم عن الصلاة نهياً صريحاً بان قال لا حاجة الى الصلاة اولا تصلوا فقال لا وانما تكلم عن الصلاة كلاماً ابان فيه عن ان صلاتنا لا يعبأ الله تعالى بها ولا يقبلها بان قال ماملخصه ان الاعمال الظاهرة في الصلاة كالركوع والسجود هي كأعضاء الجسم والانسان ليس انساناً باعضاء جسمه وانما هو انسان بروحه ونفسه وروح الصلاة الشعور بعظمة

الله تعالى وكمال سلطانه فيها وتدبر ما يتلى من القرآن والذكر المعبر عن ذلك بالخشوع . قال محدثي واذا كانت صلاتنا ليست على هذا الوجه الذي لا يرضى الله تعالى الا به فلاشك انه يعني بان الاولى تركها مع ان قصارى ماقاله فقهاؤنا ان الخشوع مستحب او مسنون . فقلت له ياستاذان الذي قاله الرجل موافق للقرآن والاحاديث الصحيحة وقد فصل الكلام فيه علماء الآخرة الذين بينوا للناس مايقربهم من الله وما يبعدهم عن رضوانه كالامام الغزالي في الاحياء اما الشرنبلالية والولوالجية والتتارخانية ونحوها من كتب الفقهاء فانما وضعت لضبط الاعمال الظاهرة وهلا حملت قول السيد على طلب الخشوع الذي اناط الله تعالى به الفلاح في كتابه دون الحمل على ترك الصلاة بالمرة فرجع الرجل الى قولي وكان منصفاً فلو انني اخذت منه القول الاول على غرّه واذعته كما هو دأب الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لما تعديت في ذلك ماعليه الدهماء منا ولقد وقع للاستاذ المرحوم السيد جمال الدين كثير من امثال هذا لاسيما في المسائل الفلسفية الغامضة ونسبتها للدين

أما سوء القصد وما يتبعه من الكذب والافتراء فلا تسل عن حال اهله مع المصلحين لاسيما في مثل الدور الذي فيه أمتنا اليوم من الضعف والاضمحلال وفساد الاخلاق . وأعجب ماسمع فيه ان بعض علماء السوء والفتنة اشاع بين الناس في العام الماضي بان فلاناً من العلماء أنكر وحدانية الله وبعضهم قال انكر وجود ه انكاراً صريحاً على ملأ من العلماء والطلاب في الجامع الازهر ومع ان هذا غير معقول — وأين من يعقل — أن يصدر ممن له ادنى تميز وان كان فاسد الاعتقاد فان كتاب ذلك العالم الذي كان يقرأه في التوحيد بين الايدي وفيه

اقوى البراهين العقلية على وجود الله تعالى ووحدانيته وهو من تأليفه ولكن ماذا نقول فيمن سفه نفسه واستخف عقول الناس ولم يراقب الله تعالى فحمله اغواء شياطينه على ذلك البهتان العظيم فنزل به ثم بمستشاره الجزاء الاليم . لقد جمح القلم في بيان مايعرض للاصلاح من العلل فارجع الى ما كنا فيه

قلنا ان الحكمة كالمطر يأخذ كل احد منها مايلائم تربيته وقد كان عدد الذين اتصلوا بالسيد جمال الدين من المشتغلين بالعلوم الدينية قليلا بسبب تنفير الشيوخ عن حضور مجلسه لما علمت ولذلك ظهرت النهضة القلمية في لابسي الطرابيش اكثر من لابسي العمائم وكان عدد الذين يسعون في اصلاح العلم والتعليم الديني قليلين . وكما اننا في حاجة شديدة لرجال الاقلام الذين يجيدون الكتابة في جميع المواضيع لاسيما في الفنون العصرية التي عليها مدار التقدم الدنيوي كذلك نحن في اشد الحاجة الى قوم يفهمون الدين على حقيقته التي ساد وسعد بها سلفنا الصالح وشقي واستعبد بجهلها خلفنا الطالح — الى قوم يفهمونه ويحسنون تلقينه وتعليمه فيأخذون بما ينبغي وهو اللباب الخالص ويلقون ما ألحق به وتغلغل في كتبه مما ليس منه ولكنه صار حائلا دون فهمه وتعلمه . ولقد كانت عناية السيد رحمه الله بهذا النوع من اصلاح العلم والتعليم اشد من غيره ولكنه لم يجد من المستعدين له الا قليلا والكرام كما قالوا قليل

امثل من اتصل بالسيد من الذين تربوا في معهد الدين علماً وعملا العلامة المفضال الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد وهو الرجل المفرد الذي تشبه فطرته الزكية فطرة السيد جمال الدين وعوامل تربيته تربيته حتى في سلوك طريقة التصوف سلوكا كاملا . ولقد كان قبل معرفة السيد زيته صافياً

يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فمسته بالاتصال به نار غيرته وحكمته فاشتمل نوراً على نور . وقف على نتيجة ابحاثه واختباره الطويل في الاصلاح الاسلامي بل والشرقي ايضا وعومل من الشيوخ الذين يخافون ان يظهر الاصلاح العلمي تقصيرهم في العلم او التعليم بمثل ماعومل به سابقه حتى لم يكن بينه وبين معهد التعليم الاسلامي في مصر (الازهر) اتصال قبل هذه السنين الاخيرة وسبب ذلك وشايات الشيوخ به للخديو السابق وتنفيرهم طلاب العلم عنه بانه فيلسوف يخشى من فلسفته على دينهم * وكأن هؤلاء لاثقة لهم بدينهم لانهم ليسوا على بينة منه فيخافون من كل شبهة ان تأتي على زلزاله أو زواله والموقن بالشيء لا يتوقع ولا يتصور زواله ومن لا يكون موقناً لا يكون مؤمناً . ولقد بقي لهذا الوهم بقية في نفوس بعض طلاب العلم في الازهر الى السنة الماضية فكانوا عند ما قرأ الاستاذ رسالته في التوحيد يتوقعون ان يأتي بمسائل الخلاف بين الفلاسفة والمسلمين ويرجح ادلة الاولين فلما رأوه قد سلك في العقيدة مسلك السلف اطمأنت قلوبهم وزايلتهم اوهامهم

تلك الدسائس والوساوس هي التي حرّمت الترقي على الازهر في السنين الخالية وانحصر سعي الاستاذ في الطباعة زمنا ، قبل الفتنة العرابية ، فكان له اثر عظيم في النهضة القلمية وفي القضاء زمنا آخر والعهد به قريب وقد كان للمتصلين به في كل طور من الاطوار وكل زمن من الازمان اثر ظاهر في النهضة الحاضرة بحسب معارفهم وبيئتهم (حالهم ومحلهم) انظر تر القضاة الثلاثة — سعد بك زغلول واخوه يحيى بك وقاسم بك امين — وهم الذين يفتخر بهم القطر المصري ومثلهم يصح له الاحتجاج بأن المصريين اهل لان يحكموا انفسهم بانفسهم هم من اخصاء الاستاذ والمتلقين عنه . تعلم كثير من

المصريين في مدارس اوربا كما تعلم قاسم بك وفتحي بك ولكن لم نر واحداً منهم يشغل اوقات فراغه بالتأليف والترجمة للكتب النفيسة التي يحتاج اليها الوطن في رقيه كما هو شأن هذين الفاضلين . هل يوجد بين ايدينا من الكتب النافعة لنا في نهضتنا الدينية والدنيوية كرسالة التوحيد للاستاذ وكتاب تحرير المراة لقاسم بك وكتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين الذي ترجمه حديثاً فتحي بك وهو افيد كتاب الف في اوربا في التربية والتعليم؟ كلا . انه يوجد كثير من المصريين لا يعرفون قيمة هذه الكتب وآخرون لا يرفعونها الى مكانتها من الاعتبار التي تستحقه لاغراض معلومة وامراض غير مجهولة ولكن سيأتي على مصر زمان تجعل فيها دراسة هذه الكتب ضربة لازب ويجزم كل من يكتب في تاريخ مصر بان هذه الكتب كانت من انفذ عوامل النهضة الاخيرة واقوى اركانها (كما اعترف الذين كتبوا في ذلك كجرجي افندي زيدان بان السيد كان مبدا هذه النهضة) وكما يجزمون بهذا يجزمون بان هذه الكتب الكثيرة التي وضعت للبحث في الفاظ الكتب واساليبها كانت عثرات في طريق العلم بل وفي فهم تلك الكتب نفسها وسدودا امام الترقي وان كانت القاب مؤلفيها ضخمة ونعوتهم كبيرة . ان جهل الامة هو الذي شبّه عليها النافع بالضار وقد طفقت تتنبه الى مصالحها وتخرج من مضيق الغرور والانخداع باللبوس والنعوت والالقاب وهذه حركة طبيعية اقتضتها سنة الله في رقيّ الامم فمقاومتها جهل وغرور لذلك نرجو من علمائنا العقلاء ان يسايروها ويساعدوها الان يقاوموها ويعادوها وان يجعلوا الحق ميزان الاعمال اذ الرجال تعرف بالحق لا الحق يعرف بالرجال